

## المرأة الحديثة والاجتماع في الشرق والغرب بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

قال أحد مشاهير الكُتاب المعتدلين المحافظين<sup>(١)</sup> "من لا يمكن أن يعزى إليهم الخوف أو القلق أو النقمة على شيء لتمتعه بكل الثمرات والخيرات التي أنتجها العصر الحديث في صحيفة تعد من أمهات الصحف المحافظة :

"الانزعاج والقلق حالة نفسية تبدو في ظروف خاصة بين الأفراد والجماعات على حد سواء ، وقد تتولد من اسباب معروفة مألوفة كما تنشأ من أسباب معنوية يتعسر تحليلها . ولعل أصدق ما توصف به حالتنا في هذه الأيام أنها حالة قلق وانزعاج تسيطر على نفوسنا أفرادا وجماعات ، تبدو مظاهر هذا الانزعاج وذلك القلق في حياتنا الخاصة وفي حياتنا العامة ، وأثر هذه في تلك جلي واضح كما أنها تبدو في شؤوننا الاقتصادية والسياسية ... لا يستطيع الفرد أن يبني حسابه على أساس ثابت معروف وهو في كلا الحالتين يتخبط في الظلام . والضرائب تلقى معارضة عنيفة في مجلس النواب وقد يكون شأن الأبلولة والمهين الحرة والدفاع شأن الأرباح الاستثنائية ، وكل هذا مصدر قلق وانزعاج . وفي الحالة السياسية مثل هذا القلق والانزعاج وأسبابها التعب والملل وحرب الأعصاب ، نمسى ونصبح بين أنباء القتال والمعارك في الشرق والغرب . في كل مكان روح القلق والانزعاج تلح ... "

هذا الروح روح القلق والانزعاج ليس مصدره الحرب وحدها ولا الأزمة المالية ولا عدم الثقة ولا الخوف من الغداة في العشية أو من العشية في الغداة . ولكنه ملازم لروح العصر الحديث ، فلولا تكن الحرب لكانت مخاوف أخرى للأفراد والجماعات ، غير أن الحرب طعم أو لقاح جديد أضيف إلى شجرة الحياة فزادها مرارة واهتزازا تحت العاصفة . وإن الطبيعة البشرية قادرة على التحمل والتضحية وتخدير الذات وخداع النفس بما يفوق التصديق . فإن الانسان المتحضر - حتى في البلاد الشرقية - يمكنه أن يخفي حقيقة حال شعوره ، حتى لا يبين منها شيء فقد أنتن كل ضروب الرياء والنفاق الاجتماعي بما تلقاه بنفسه وبما ورثه وبما ركب في فطرته بدون وراثة وبما أرغم عليه لمجاراة المجتمع تعلقا بجاهته وبرغباته وأهوائه . وأن تصوير ذلك وتحليله وتعليقه يقتضى وضع الكتب الضخمة وقد وضعت هذه الكتب فعلا ولم تفد إلا في فتح أبواب جديدة في النفاق والرياء واتخاذ وسائل حديثة لالتقاء الفضيحة ، والشرق والغرب في ذلك سياتن لا يفترق أحدهما عن الآخر .

(١) المدره موردا الكاتب الاجتماعي والمترجم الشهير في مجلة «العصر الجديد»

ومن المسائل التي تصور حقيقة الحال ووصف الوسائل التي يتخذها المجتمع للتغذية والتعمية وينساق منها الى ما نسميه نحن أسباب أو سبيل الفساد، ما اخترعته الثورة الفرنسية ونقلته عنها أمم العالم وهو ما يسمى بالولائم والحفلات والاعیاد. وقد جنت الثورة الفرنسية بهذا النوع من الحياة الاجتماعية ، لأنها صبغته بصبغة رسمية وأشركت فيه رجال الحكومة بفعلت بذلك غيرها من الحكومات في حل من تقليدها حتى صارت الحفلات والأعياد والذكريات تقاليد قومية وشعبية وكوارث رسمية . فكان لهم عيد الحرية أو سقوط سجين الباستيل في ١٤ يولييه ، وعيد الكائن الأعلى ( ابتكره روبرتسبير ) وقد اتخذتها الثورة لتنمى الشعب حلاوة أعياد الملوك الذين كان عهدهم في الفترة السابقة للثورة براقا خلافا ، فأمنت فرنسا في فتح باب الشهوات على مصراعيه ، واطلاق القرائر البشرية بعضها على بعض بلا شرط ولا قيد ، بحجة أن هذا فرع من الحرية والترفيه عن الشعب وتسجيل الابداع ، ووافق ذلك شهوات رجال الحكومات ونسائهم الشرعيات والمحظيات فكانوا هم أسبق الناس الى تشريع القوانين الفاتحة لأبواب هذه الشهوات ؛ ثم سرت العادة بالتقليد فصار لكل رجل وامرأة عيد ميلاد وعيد ملاذ ، وأعياد فضية وذهبية وماسية وجمعوا بين أعياد الدولة وأعياد الأفراد وإن كان مظهرها واحدا فهو الطعام والشراب والرقص في الأماكن العامة والخاصة ، وقد شهدنا من الفضائح والجرائم أيام السلم والطمانينة في هذه الأعياد ما تشمعله الأبدان ويندى أوجه الفجار بالبخيل ، دع عنك الفضلاء والمتوسطين من الناس . فان هذه الحفلات السنوية والتنصيفية والشهرية والاعیاد الموسمية والربيعية تتحول إلى اجتماعات للسكر والفجور . ولعله يهولك أن تعلم أن البلاد الشرقية الاسلامية قد وقعت في حبالئ التقليد وانقادت للقوى الخفية التي تدفع بها الى مهواة الهلاك السريع فابتكرت السيدات ولغيف من الأهازج والمحترفين ، الأعياد للجمعیات والحفلات للجماعات . وأخذوا يلتمسون أو هي الاسباب لها فهذه للأفراح وتلك للميلاد وهذه للختان ولانقضاء أسبوع على مجيء مولود سعيد الى العالم يجيء أبواه عيده بعد ذلك كل عام ، وهذه جمعية خيرية أو اجتماعية تقيم الحفل لاعاشة الشيخ أو رعاية الطفل أو معونة الفقير . وفي كل من هذه بطعم الطعام وتشرب الخمر وتنصب أسواق الرقص على أنغام الموسيقى وتحصل الخاضرة بعد المعايرة ويصحبها المس والهمس ويقام للدعارة صرح عال أسسته كهول وشبان وفتيات بريئات ونسوة محرومات وصانداات ، فتتهك الأعراس وتنفذ الأعراس وتداس الحقوق وتنشر المعصية والعقوق وتفسد حياة نساء لم تكن لتفسد لولم تشجع إحداهن بما تراه ممن هن أ كبر منها سنا وأرفع مقاما في نظر المجتمع ولكنهن أيضا عاليات الكهوب في الفجور ، حتى لمس الإباحة في ظل الشعور المصبوغة واحتضن الشباب

من الرجال بعد أن ودعيت الشباب في خريف الحياة . ولم يكن هذا الفعل كافيا بل وجب استغلاله وتخليده في بعض الصحف والمجلات الداعرة التي تؤجر على ذلك وتجنح ثمرات فساد الحياة ، فإن أصحاب هذه المطبوعات يبحثون إلى الدور والقصور بأفراد لا يعمل لهم ولا رزق إلا تصوير هذه المفاسد في أوضاع تستهوي من لم يشهدها وتصورهم على حقيقتهم في طعامهم وشرابهم ورقصهم وغنائهم ، وقد سفر النساء جميعا أثناء الرقص أو الغزل وتحت كل صورة اسم صاحبها وصفتها واسم زوجها ، وهي عنوان كاف للدلالة عليها ، وكذلك العذارى والفتيات وهم يقلدون في ذلك بيوت الملك في أوروبا وبيكار السراة الذين لم يكن خبرهم تنشر صورته . أما الآن فأحقر رجل وأفقر مواطن لو لم يكونا موظفين أو تاجرين بل كان أحدهما مرابيا صغيرا وكان الآخر عاملا فإنهما لقاء جعل معين يتحصلان على صورة تمثلهما وبناتهما وأخواتهما وأصدقائهم ، ولقاء جعل آخر تنشرها مجلة أو جريدة بالقباب وأسماء يصحبها التضخم والتعظيم . وقد أبرزت كل واحدة دمايتها وضحامتها ولكنها واثقة من أنها تجد في سوق الفساد شاريا أو هاويا . وقد جدهم لو أما كن الفجور في مسارح الصور المتحركة حيث تجتمع الطبقات في كل ليلة في مكان ، فهذا المسرح أولى لياليه الاثنين والآخر الثلاثاء والأربعاء والخميس وهكذا ، وهذا تواطؤ بين أصحاب تلك الأما كن ليجمعوا بين جلب النظر بحجة الاقتناع ، وهناك يجتمع الرجال بالنساء ويختلط الخابل بالنابل تحت ستار الظلام وفي قترات الاستراحة ؛ ولهذا الأما كن شهرة سيئة في كل الأقطار منذ نشأتها وقد زادت منذ بالعوا في زيتها وجعلوها ملائمة لاجتماع الطبقات حتى أن الخاصرين والحاضرات لا يشتغلون بما يشهدونه بقدر ما يشتغلون بأقوالهم وأحوالهم وتواريح اجتماعهم ومواعيدهم الخ .

وأن المرأة قد مثلت في كل جيل وعصر مآسى واستعبدت الرجال وأثرت في حياتهم مؤثرات مختلفة الألوان والأنواع ، فقد أعدمت كليو بترا رجلين من رجال رومه وهما قيصر وأنطونيوس ، واستولت اسبازيا على حياة بركليس وأفكاره ، وكانت هيلانه سببا في حرب طروادة وخراب وطنها وغيره من الأوطان ، وكانت قيصرة روسيا المستهتره لعلاقتها بالتأسيس راسبوتين سببا في حدم عهد القيصرية ، وقد قلدها النساء في اتخاذ أجدان من الخدم والفلاحين والمجنودين وأدعياء القداسة ، وكانت في فرنسا الساقية على الثورة نساء تمكنت كل منهن من الاستيلاء على قلب ملك أو وزير أو أى رجل من رجال الدولة حتى تصير إرادتها جزءا من دستور الدولة ، كما كانت حال المرأتين دوناى و بومبا دور ، وقد سرت هذه البدعة السيئة إلى حياة العصر الحديث ، ولئن كانت في الماضي ستور تخفى وراءها حقائق الفجور ومظالم الملوك والأمراء في الأزمنة السالفة . إلا أن تلك الستور قد أزيلت وأصبحت مظاهر الفوضى والفساد وتحكم المرأة في الحياة واضحة تالعيان ، وأصبحت موضعا للفخر والمباهاة والتحدث بنعمة الحظ والظالم على هذه المرأة أو تلك التي نالت القرب من الرجل ذى الشأن .

وقد تكون شرور المرأة مقصورة على الرجل الذي تلاحقه فتؤدى علاقتها به إلى إفلاسه أو مرضه أو سقوط همته وضياع مروءته أو فقد منصبه ، وقد تجلب الشقاء على أولاده أو زوجة سابقة ، وهذه على كل حال تعد امرأة لا خطر لها على الدولة ولا الجمهرة مادام الشر الناجم عنها مقصوراً على الرجل الذي يسلم إليها قياده فتكون دائرة فكهما محصورة ، أما المرأة التي عانت فساداً وأشعلت النيران وهدمت بنيان الدولة وحطمت جذرائها بمحاول مطامعها وشهواتها فهي واحدة من النوع الذى ظهر فى العصر الحديث واستخصب مراعى الحكومات الآفنة المعطوبة وجعلت نفسها واحدة من جماعة أو عصابة منظمة أساس حياتها استغلال الدولة واستثمارها حتى القضاء عليها ، فإذا أدركتهن أوائل الأخطار أو علائم الزوال همن على رؤسهن هن وأصحابهن وصواحبهن ، وعند بداية الانحلال والتفكك تظهر مفاخرات هذا النوع من النساء ، وأكبر مثل هن فى قصة عقد الملكة قبيل الثورة الفرنسية وقد كانت الدطارة والرشوة وعجز الرجال والسلب والنظم والاستعباد ، وقد كانت هى ومئات أخرى من الرذائل وعلائم الزوال ، وإن هذه النكبات القومية التى تتوالى على الأمم بسبب الرغبات الجالحة عند فئة قليلة من سادتها ونساء يكون معظمهن مفقود العقل ومحروما من الوازع الخلقى والدينى تتجدد فى كل عصر ومصر عند ما يبدأ ديبب الفناء إلى عناصرها ، وهذه القوى الشريرة تكن وتظهر وتعتبر الحياة فريسة يجب اقتناصها وضحية لا يتردد الشرار فى القضاء عليها . ومثلها كمثل جرائم الأدواء الفتاكة التى تبقى فى الجسم المصاب كامنة عشرات السنين حتى يحسب العليل والطبيب أن صاحب الجسم المصاب قد برئ من الداء فلا يلبث أن يشهد هجوم الجراثيم الكامنة هجوماً فظيماً كأنها لم تكن إلا لتستجم وتتخذ عدة وتستمد قوة جديدة ، لأجل هذا لا يقول إلا أبه بأن عصراً من العصور قد طهر ونظف وخلا من عناصر الشر ، أو أن عصراً خيراً من عصره ، أو أن ديناً ما تمكن من القضاء على الرذائل بدون تدخل السلطان ، أو أن هداية روحية هبطت على الدنيا فأنفتها من الأدران . فإنه ما دامت المرأة تلد المرأة وما دام المسأل هو الحكم الأعلى والشهوات والأهواء متمكنة من النفوس فالبقية تاتى تبعاً بغير تأخير . وإن الطبيعة البشرية تبقى على حالتها مهما تغيرت حركة الحياة وكل الذى طرأ على الدنيا فى السنين سنة الأخيرة حلول الصناعة محل الزراعة وتحكم آلات الحديد والنار فى حياة الأمم وطروء السرعة الخاطفة على سير الزمان . ولكن أى دخل لهذا التغيير فى تبديل النفوس أو تحويل الأخلاق ، أن لم يكن ميل إلى التعم الزائد والتفنن فى ربح الأموال واتساع نطاق المطامع والاستهانة بالحياة ، وصيغ المعيشة بصيغة التنقل الدائم والسفر الذى لا نهاية له ، وعجز الأمم عن إنتاج رجال ناشجين ونساء فضليات ، وعجز العقول عن إنتاج علوم وآداب نافعة بجانب الاختراعات الميكانيكية والآلية التى تعقد الحياة ولا تبسطها والتي تساعد على تكويم الثروات عند أفراد الرأسماليين والعمل على تقريب حوادث الحياة

وشخصيات أحياء من حوادث الصور المتحركة وشخصيات الصور المتحركة وجعل كل شيء على هيئة صورة مصغرة من الأخيالة والأوهام والتكالب على تمثيل أدوار ولو قصيرة جدا على مسارح الحياة، وهؤلاء جميعا رجالا ونساء ثمرات نعصر السرعة وجيل اتهاز الفرصة والذين يوصفون بأهل العاحلة حسا ومعنى .

ومن أظهر علامات الخيل المنحل المضطرب تدخل المرأة في الحياة العامة من وراء الستار . فانتقام من بعضهم أو من بعض النساء المتراحمات على مصالح شخصية . فالمرأة بطبيعتها تنفر من الحياة العامة ولا تطمئن لها ولا تبقى بنفسها في أحضانها إلا للشهوات سواء ! كان في أمور الدين أم أمور الدنيا، وكل ما ظهرن به في هذا السبيل كان بدعة سيئة ومخرزة ومدرجة للفجور . والمرأة التي اشتغلت بالشؤون العامة جلبت الدمار دائما على من أطاع هواها أو صدق بها وإنما لا تتخذها إلا غطاء أو رداء لتخفي به غايتها فإذا وصلت إليها ضربت بالحياة العامة عرض الحائط . وهي مقلدة دائما لميول الرجل الذي تتصل به فإن كان بحارا أو نجارا أو عيارا أو زمارا أو طيارا اشتغلت بقلبها وذهنها بالملاحة أو النجارة أو العبارة أو الزمر أو الطيران حتى إذا انتقل هواها إلى زارع أو صانع أو حائك أو صائغ أو دهان أو عجان انتقلت هي الأخرى بقلبها وعقلها إلى الزراعة والصناعة والحياكة والصبغة والدهانة والعطانة، فهي أبدا تاجرة لا متبوعة وتاجرة ما دامت متعلقة أو متفعة، وفي المجتمع الناجح السليم لا ترى لها أثر ولا تحس لها وجودا بل تبقى قابعة خاضعة ناضعة في بيتها فإذا مال ميزان المجتمع وبدأ الفساد يبد فيه ظهر أثرها وحجبت في الفضاء وتحملت من كل القيود لتقود الجميع إلى الخراب، فإذا حدث بالمصادفة أن كان رجلها سياسيا اشتغلت بالسياسة (١) . وعندما قامت المرأة العملاق بانكهرست بالدعاية لانتخاب النسوة في البرلمان كانت تفكر بعقل رجل لأنها فقدت أنوثتها وقد لاقت أهوالا هي ومن اتبع هواها، وكانت ذات قسوة وفضاعة، فقد تعدت على بعض الوزراء بضرب السياط على وجوههم في الأماكن العامة، وكان من برود دماهم وهذوء أعصابهم أنهم لم يحثقوا على المرأة وأعانوها بعد بضع سنين على دخول مجلس النواب، ولكن هذه التجربة بل المحنة التي دامت عشرين عاما لم تسفر عن نتيجة سارة أو محزنة . وكل ما في أمرها أن بضع نساء ذوات مال ومنصب جنسن بين الرجال واتخذن هيئة خاصة بالقبعات أو ألوان الثياب أو عوجاج الخصور أو خفض الجفون، ولم نسمع لإحداهن كلمة جامعة أو موعظة حسنة (٢) . أو رأيا حصيفا يخرج الأمة أو جماعة من الأمة من الظلمات

١ برتراند رسل في كتاب "عقبات الحرية" في الكلام على طبيعة المرأة .

(٢) ثلاثون عاما في البرلمان تأليف (Latham) .

إلى التور، وكان الفرنسيون على طليشهم ورعوتهم وتسليم ذقونهم وأنوفهم ولحاهم إلى النساء أكثر حرصا فلم يساعدوا على منح المرأة حق التصويت إلا في المآتم ! ولا أعلم عن نساء انجليزيات أثرن في السياسة بقدر ما فعل بعض الفرنسيات ولا سيما اللواتي كانت لهن علاقة برجال السياسة . وعند ما تناول هؤلاء النساء الفرنسيات أمور السياسة لم يكن عاملات فيها لأثر حسن أو نافع، ولكن لإشباع الشهوات الجاهحة وفساد الدسائس وإشعال نار الفتن وتحريك الأشباح من وراء الستار بخيوط المكاييد، وكن يعملن لإدناء رجال من أحبابهن وأقاربهن وإبعاد أعدائهن وخصومهن؛ فيحرزن الوظائف الريحية لعاشق أو حليف أو شقيق أو كاتم أسرار أو خليل متوار عن الأنظار، ويقصين عن المنافع عشيقا قديما بغضا أو مطلقا عنيدا أو زوج مزاحمة معاكسة، وبالطبع دون اعتبار لصدق أو إخلاص أو منفعة عامة فيلقين بمال الدولة وشرفها وكفاية حكومتها ويديننها في سهولة وابتسامة مرحلة من الهوة السحيقة التي تتحدر إليها بغير حذر. كل هذا وهن فاقدرات الأفتدة والضمائر مظلمات النفوس عاملات على إعدام النسل بتانا إذ يرين الخلف والأوممة عارا للطبقة العالية وتسويها للجبال وحجة حية على بلوغهن الكبر إذا نما الخلف وترصرع؛ ومن أمناهن أن الثوب القصير للبننت يطيل شباب الأم الخ، وقد اتخذت قاعات الضيافة أو "الصالون" مجامع ومسارح للفتن والفساد والرشوة والفسوق وقضاء الأعمال بتأثير الخمر والقمار والغزل والإباحة، فتقول إحداهن إنها قادرة على إسقاط وزارة وتنصيب أخرى وإفلاس شركة وفتح بنك وهز دعائم المجتمع وابتلاع عهد، دع عنك إنجاح كاتب وشاعر وانتخاب آخرين للأكاديمية الأدبية وهن يفعلن، وقد سنت هذه السنة المرأة تاليان<sup>(١)</sup> أثناء الثورة؛ وتزوج بونابرت بالأنتي جوزفين، التي صارت أمبراطورة فرنسا، وابن أخيه تابلون الثالث بالأنتي أوجيني التي صارت هي الأخرى امبراطورة فرنسا من هذه الصالونات الإباحية .

وفي المهدي الحديث عند بداية التدهور ظهر نساء بأسماء ماركيزات وبارونات ودوقات (وهي ألقاب مشترة من وارثين مفلسين أو من بابوات رومة، وإحداهن بنت بدال (بقال) والأخرى كريمة صانع صناديق السمك لمخترن، وثالثة أبوها خمار، وتجد إحداهن تلتقط رجلا تراه صاعدا في أفق المجد لمواهبه على فقره وسوء هندامه وقلة عنايته بشخصه كما هي عادة النوايغ فتؤيه وتحسن حاله وتعنى بمظهره وترج به في ساحة المجتمع فتكون له حاشية وأنصارا ومحبذين ماجورين، فإذا صعد<sup>(٢)</sup> استغلته واستثمرته وشجعت له وبذلت له كل ما يحتاج إليه النايغ المحروم من التشجيع فيتنصرف تدريجا عن المنفعة العامة أو يجعلها

(١) Tallien انظر تاريخ بونابرت تأليف بوريين Bourienne .

(٢) قضية مدام كايرو في مجرمة قضايا ١٩١٤ تأليف Ceo. London .

ترد مواردنا عفوا ومصادفة وهو متجه بكليته لإرضاء مطالب المرأة التي أقدته وكونته [ وإلى إرضاء الذين التفوا حوله في الساعة الأولى ، وقد روى هذا وكتب في صحف وقضايا ومذكرات عن اريستيدريان وعن دلاديه ويركو وعن جمبا نفسه الذي قتل قتلا غامضا بيد المرأة التي مثلت معه هذا الدور ، وعن فيلكس فور الذي مات بسكنة قلبية . وقد تكون المرأة منهن ذات جمال ومال وشباب ولكنها ترتجى على دميم خلق لا يميزه إلا ذكاؤه أو خبثه كالمرأة دومنيكا بوجتيوم صاحبة البرسارو أحد وزراء العهد الأخير، وحتى أندريه نارديو الذي زعموه من أقدر الكتاب والسامة وله كتب قيمة ومقالات وجيهة في السياسة الخارجية وكانت له مطامع في ديكتاتورية فرنسا كان واقعا تحت قبضة صريم ماركيه المثلة فلأت قلبه بالمطامع وأوهمته أنه لا يقل عن بونايرت وقد يصبح حاكما بأمره فوصل الى رئاسة الوزارة ثم هوى، وقد قامت بعد حرب السبعين وقبلها بقليل مدام جوليت آدم بأدوار كثيرة وحكمت فرنسا من قصرها مذ كانت حرما لمحافظة باريس فرفمت قوادا إلى مناصب الفرقاء، وأدخلت رجالا إلى ساحة الأكاديمي، وأقامت وزراء وجردت حملات للحرب في المستعمرات، وكانت صديقة لللكات والأمراء، وكان من سوء حظها أن عمرت ورأت بعينها صروح مجدها ومجد فرنسا نهار، وقد ماتت في المائة من عمرها بعد أن نسيها كل من عرفها، وقد قال محرر جريدة الطان في سنة ١٩١٠ "إن اسم طالب علم له أثر في أذهاننا أقوى من أثراس مدام جوليت آدم" وقد ماتت في فقر مدقع وحيدة في قصرها يخيّف من ضواحي باريس. ولكن هذه الكاتبة لم تكن من اللواتي استعملن الفساد في الوصول الى النيات لأن عندها كان أقرب الى الحسنى، ولم تكن فرنسا قد هبطت الى الدرك الذي نزلت اليه في الأربعين سنة الأخيرة .

وكانت سياسة الصحف والشؤون الخارجية تدار في منازل كونتيس مارتا وسوزان شريير وكونتس داركور ومونتجومري؛ ومنهن نساء مستأدات يلجأن الى القوة ويطلقن النار على من يدفعهن أو يعصاهن، كما هي قصة المرأة كايو زوجة الوزير التي صرعت جاستون كالميت مدير جريدة الفيجارو<sup>(١)</sup> والمرأة ستهليل التي جهرت ونفرت بعلاقتها بفيلكس فور ولطخت يديها بدماء زوجها وخرجت من محكة الجنائيات "رافعة الرأس موفورة الكرامة"!!! والمرأة ماجدافونتايج التي أطلقت النار على شارل دى شامبرون وزير فرنسا المفوض وسفيرها في رون. ومنهن هيلين دى بورتس التي فاقت بفتنتها هيلين دى تروا فقد أعانت ابن عمها على تأسيس حزب صليب الحديد<sup>(٢)</sup> ولعبت بقلوب الوزراء وعقولهن عند ما حان حين فرنسا

(١) في يونيو سنة ١٩١٤ قبل الحرب العامة الأولى بقليل .

(٢) قضية (Cagonzet) الشهيرة سنة ١٩٣٧

سنة ١٩٣٩ ثم لحقت ببول رينو لحاكت خيوطها حوله، وكان الرجل كهلا والمرأة فتية لا يزيد عمرها عن نصف عمره . وكان رجل جد ووقار وهمة وقد يبدو على خلقه بعض الجفاء والخباف ولا سيما أنه بدأ يخطو الخطوات الأولى في العقد السادس ولكن المرأة الفاتنة لا تعوزها الحيلة إذا أرادت أن تلقى شبا كهيا على رجل، ولم يكن بول رينو أول رجل ذى شهرة واسعة ولباقة وحصافة ومطامع واستقلال فى الرى وقوة فى العزيمة والإرادة، يذكره تثير المرأة فى إبان عظمته الفكرية وتشديد مستقبله الضخم فى خيله فعصف بكل هذه الآمال والنواهب كما تعصف ريح السموم بقوافل الصحراء، أو بالجنان الخضراء قششها وتذروها أو تركها خرابا يبايا فإن قوة المرأة الشريرة كقوة عناصر الطبيعة . فابركان الهاج والمحافظة الجاحمة والنهر الذى يطغى فيضانه إن لم تفقها قوة الشر فى المرأة فهى لا تقل عنها حتما . وأنها لأداة من أدوات الأفضية والأقدار، ولذا أطلق الفرنسيون على هذه المرأة اسم *Femme Fatale* أى امرأة القدر، وهو اسم لا يطلق على صواحب الخير مطلقا بل أبدا ودائما على صواحب الشر والأذى، ولأجل المقارنة العارضة بين هذا النوع وبين النساء المواتى ورد ذكرهن فى التواريخ القديمة ، فإ على القارئ إلا أن يتذكر اسم إسبازيا تلك المقدمة التى شغفت حبا ببركليس وأعجبت به لفصاحته ونباته<sup>(١)</sup> و بطولته فاستهوته ولكنها خدمت عبقريته وتعمدت أن تكون نافعة له فكان عصره من أحنأ العصور واجداها على وطنه بمساعدة هذه المرأة التى كانت فى أول أمرها مجهولة؛ أما فى هذا العصر الحديث فكل أفراد هذا النوع من النساء منصرف الى الشر المحض وإن المرأة لا تدنو من الرجل العظيم إلا لتفسد حياته بعد أن تستغله لمصالحها ومصالحة ذويها وتتخذ منه أداة لأغراضها، وهكذا فعلت المرأة هيلين دى بورتس التى وصفها الفرنسيون باسم ”جالية الخراب“ فقد تصنعت البساطة والسذاجة وجمعت قدرتها وقضت أوقاتها فى توحيد رينو وعزته وإفراده فعملت على إقتناء أصدقائه المخلصين بالمكاييد والفتن والوقية والشاوية والتميمة وأوهمتهم بأنهم وهم الذين كانوا بالأمس أنصاره ومعاونيه قد صاروا ألد أعدائه ، وأحلت محلهم من شئت من الحرية ”واللصوص الشرفاء“ وقد هيأتهم من قبل ، وأعدت لهم نفسية العبقرى الساذج الذى قد يكون عقله كعقول الأحمال فيما عدا ما جهزه به الطبيعة من حذق فى السياسة أو مهارة فى الحياة العابسة، فلما أطبقت الحوادث على فرنسا وكاست أمالها محصورة فيه كان رينو قد صار ”بقية رجل“ وشبعا من الماضى .

ولم تكف المرأة الفاتنة والغانية الساحرة بهذا الجبال الذى أورثته إياه بل ما زالت تعمل على تحطيم روحه وإضعاف ارادته وتخذيل همته للقضاء على البقية الباقية من شخصيته، وقدواقها منيتها عند ماوافت رينو سقطته فقد اصطدمت سيارته التى يقودها وإلى جانبه تلك ”الأقعى

المطية " كأن أجلها كان مربوطاً بمركبة فرنسا فلفظت تلك المرأة أنفاسها الأخيرة قبيل التسليم التاريخي بوقت قصير . وقد شاع وذاع في ذلك الوقت أن رنو قتل وراح ضحية الحادثة وتداركوه في الرمي الأخير فانتدوه مهشماً محطماً فانهضوه وعصبوا رأسه وكانت هذه الواقعة ختام علاقته بها . هل كانت حادثة عارضة أم كانت رغبة نامضة أدركت الرجل عند الضيق فأراد الموت لنفسه ولها وقد تيقظ بقلعة الضمير الأخيرة ورأى في طرفة عين كل ما جنته هذه المرأة عليه وعلى شعبه . وسيق هذا الأمر سرا مكتوماً إن كانت جناية قتل فقد استحقت المرأة ، وقطع الرقبة تحت عجلات السيارة كقطع الرقبة بيد السيف ، أو على نطح الجلال ، أو تحت مدية المقصلة .

•  
•

هذه صورة من صور العصر الحديث وصفناها بما يجاز لنعطي فكرة عن العصر الذي نحاول وصفه وبهجرتنا تراكم الحوادث وتسابقها كأنها شريط تصاور متحركة ارددت بها رأس المؤلف والمخرج والمصور قبل أن تزدحم بها رهوس النظارة . وهذا طرف وجيز من حياة المرأة في الاجتماع الحديث الذي تشعبت طرائقه وتعددت نواحيه . ولون من مسانك المرأة التي كانت مفترضة أن تكون للخير المحض ولسعادة المجتمع وكأن حلقة الاتصال بين الماضي والحاضر مصنوعة من انقولاذلا يتورها اين ولا يدركها انثناء وقد كان في التشريع الاسلامي الخاص بالمرأة خير ضمان لها وللرحل وللأسرة الاسلامية ، ففعل المرأة المسلمة ولا سيما المصرية ترعوى وتعتمد لتنجو من الأخطار وتنجو معها الأمة .

محمد لطفي جمعة